روايات عربية في الذاكرة
قراءة في رواية " سيد قريش "
لمعروف الأرناؤوط

د.بوزيدي محمد
جامعة معسكر

الملخص
يسعى هذا المقال لإظهار مقدار ما يزخر به العمل الروائي للأديب معروف الأرناؤوط في روايته " سيد قريش "،كونها تثير في رأينا جملة من الأسئلة المشروعة ذات صلة بالكتابة الأدبية عامة و الكتابة الروائية بشكل خاص . فنص رواية " سيد قريش " يمتح مشروعية وجوده التاريخية من عمل بحثي في بطون كتب التاريخ العربي، واحتذاء أعمال غربية، وهذا كله من أجل تصوير وتعريف بالواقع المر آنذاك في البلاد العربية بسبب الاستعمار أو ما شابه ذلك بالحياة المزرية والغبن و المأساة الاجتماعية ،فكان الهدف في حقيقة الأمر من وراء هذه الأعمال الروائية الخالدة بعث الماضي المجيد، وإزكاء روح اليقظة في نفوس الأجيال.
ليزاوج هذا الإبداع الروائي حينئذ ، في تناغم حساس وجميل ،بين التاريخ و المتخيل :تاريخ لماض قد ولى ،وتاريخ يخترعه نسيج عمل روائي متخيل ومعبر بعمق.

مقدمة

تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه ، وترتدي في هيئتها ألف رداء وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل مما يعسر تعريفها تعريفا جامعا مانعا ، وذلك لأننا نلفي الرواية تشترك مع الأجناس الأخرى في كثير من الخصائص .1

كما أن الرواية تأخذ في كل عصر صورة مميزة وتكتسب خصائص تجعلها غير مطابقة لخصائص الرواية في عصر سابق2.

وهكذا ففي العصور القديمة كانت الملحمة هي الرواية ، وفي القرون الوسطى كانت القصة الطويلة الخرافية هي الرواية ، وفي بداية القرن التاسع عشر كانت القصة الطويلة الرومانسية هي الرواية ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الرواية التاريخية الاجتماعية المهيمنة على العمل الإبداعي لما لها من صلة في تصوير الواقع المر آنذاك في البلاد العربية بسبب الاستعمار أو ما شابه ذلك، فكان الهدف في حقيقة الأمر من وراء هذه الأعمال الروائية بعث الماضي المجيد، وإزكاء روح اليقظة في نفوس الأجيال،3 وبالفعل فقد أبدع في هذا المنحى مجموعة من الروائيين بأقلامهم الرفيعة ،كالكاتب جرجي زيدان" ومعروف الأرناؤوط" 4 في روايته التاريخية سيد قريش 1929 رائد الرواية الّتاريخية بشهادة مجموعة من النقاد والكتاب،حيث يقول الناقد عبد اللطيف أرناؤوط عنه" كان رائداً من ر واد الرواية الّتاريخية، و لم تكن عدته إلا ما قرأه من كتب التاريخ العربي، واحتذاء أعمال غربية .ويظلّ في نظر الدارسين أ ول من فتح الطريق، فتصدى لكتابة الرواية الّتاريخية العربية الإسلامية، فهو رائدها في بلاد الشام5.

ومما سبق ذكره ،وفي طيات هذا البحث المتواضع نحاول تتبع أهم الخصائص الفنية المعتمدة في الرواية التاريخية وكيف عالجت موضوعها، وكيف رسمت الشخصية العربية في الّتاريخ، أخذين بعين الاعتبار المرحلة الّتاريخية التي تصدت لها هذه الروايات.في تلك الحقبة الزمنية.

تتكون رواية سيد قريش من ثلاثة أجزاء ،و يحمل الجزء الاول منها عنوان" سطيح" و هو اسم الكاهن الشهير الذي كان يقصده العرب من كل الأرجاء لاستطلاع المستقبل ،وكان يقيم في سفوح الجبال عند نهر الأردن ،أو في الأطلال النبطية ما بين البلقاء و حصن تيماء. و هو الذي أنبأ الناس عن اقتراب ،ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم.6

أما الجزء الثاني و الموسوم ب "امرؤ القيس وتيودورا "هذه هي زوجة قيصر الروم يوستانيوس، التي جعلها الروائي الرأس المدبر لمقتل امرئ القيس ،الذي ذهب إلى القسطنطينية ،كما هو معروف في التاريخ ،يستنجد بقيصر الروم لاسترداد ملك أبيه في بني أسد .و يصورها الروائي امرأة فاجرة ،كثيرة العشاق ،عرضت حبها على الشاعر العربي فردها عنه و انصرف إلى سلفيا ابنه القيصر ،فوجدت تيودورا فرصة في ذلك لتنتقم منه، و أوغرت صدر الإمبراطور عليه ،فأهداه رداء مسموما جعل جلد امرئ القبس يتقرح و جسمه يهزل و يذوب شيئا فشيئا ،إلى أن قضى نحبه.7

بينما الجزء الثالث من الرواية فأعطاه المؤلف عنوان "ريات ذي قار "،وذو قار هو موقع ماء بين واسط والكوفة بالعراق 8 وقد أطلق اسمه على موقعه المشهور في التاريخ وقعت بين العرب و الفرس قبيل البعثة النبوية بحوالي عشر سنوات، و انتصر فيها العرب على الفرس انتصار ساحقا فسميت موقعة ذي قار، أو يوم ذي قار ،ويشير هذا العنوان الفرعي أكثر من غيره إلى التوجه القومي الذي حاول المؤلف أن يعبر عنه في روايته ،فهذا اليوم أصبح له دلالة خاصة عند القوميين العرب .لأنه اليوم الذي اجتمعت فيه كلمة العرب لأول مرة وتوجهت فيه سيوفهم لصد عدوان خارجي ،عوض أن تتوجه إلى صدور بعضهم البعض ،فكتب لهم النصر.

ولعل هذا التوجه القومي المبكر و الواضح لدى معروف الأرناؤوط هو التوجه الأساسي الذي ميز الكاتب عن غيره من الكتاب العرب الآخرين الذين تناولوا في أعمالهم الروائية الظروف التي أحاطت بظهور الإسلام في الجزيرة العربية ،وعلى الأخص جرجي زيدان في رواية فنان غسان و طه حسين في ثلاثيته على هامش السيرة ففي الوقت الذي انصرف فيه هذان الكاتبان إلى تعليم التاريخ و تسجيل وقائعه في شكل روائي يسلي القارئ و يحبب له مادة التاريخ ،دون أنم يضمنها أي توجه معين حاول فيه معروف الأرناؤوط أن يعطي في رواياته معنى خاصا للتاريخ ،و أن يجعل القارئ يستخلص منه العبرة ،ويسقطه على الحاضر، في محاولة دائمة للتجدد .والخروج من قمقم القيود.9

انطلاقا من هذا الهاجس عنده ،وسع دائرة مسرح وقائع الأحداث الذي تجري فيه وقائع الرواية، ليصور أحوال العرب في مختلف المناطق التي كانوا يعيشون فيها ،سواء في قلب الجزيرة أو على أطرافها ،بل تتبع بدقة متناهية أحوالهم حتى في بلاد الروم و فارس و الحبشة ،وهذا ما جعل روايته تتضخم لتقارب صفحاتها الألف و خمسمائة 10ومن خلالها يحاول هذا الكاتب الروائي أن يحلل أسباب تفرق العرب آنذاك. والعداء المستحكم الذي كان يسود علاقاتهم فيما بينهم، رغم العوامل العديدة التي كانت تجمعهم ،و تشكل لديهم كل مقومات الأمة ،وفي مقدمتها عامل اللغة. بجماليتها التعبيرية وأساليبها الفنية التي ظلت تتطور مع الصيرورة والتقنيات التي استخدمتها في تجديد عوالمها وهي تسعى الى مواكبة تطور المجتمع العربي وتحولاته11 . و يرجع المؤلف سبب تلك الفرقة و ذلك العداء ،إلى عامل جوهري يسميه (اضمحلال الديانة في القبائل العربية العاكفة على عبادات مظلمة مغمورة ، ليس لها غرض أدبي تقصد إليه ،او غرض اجتماعي تحوم حوله.12

أما السبب الأساسي الثاني فيراه في التدخل الأجنبي ،وهو عامل نتج عن السبب الأول ،مما ساهم في عامل اضمحلال الديانة لديهم على أعدائهم الحقيقيين من الفرس و الروم مهمة التغلغل إلى البلاد العربية، و التحكم فيها ،فعملوا على ضرب العرب بعضهم ببعض. و أذكوا بينهم العدوة و البغضاء، عملا بالقول المشهور :فرق تسد ،وقد تجلى ذللك

بصورة واضحة في التغلغل الأجنبي بشكل خاص في مملكة اللخميين في العراق ،الذي كانوا يدنون بالولاء للإمبراطورية الفارسية ،ومملكة الغساسنة في الشام الذين وهم من اتباع امبراطورية الروم.

ومن هذا المنطلق نرى الكاتب يركز تركيزا شديدا في الجزء الأول و الثاني من الرواية على الأحوال هاتين المملكتين العربيتين ،إذ يتناول بكثير من التفصيل والترتيب والنسق والحركة والتغير البعيدة عن قيود الشعر الصراعات القائمة بينهم و التي كانت لا تتوقف 13،و أيضا حروبهما التي لا تخبو لها نار ولا يقر لها قرار ،يذكيها الفرس من جهة ،و الروم من جهة أخرى ،و يتعهدونها بخطب الفتنة ،إنهاكا لقوة العرب ،و إبقاء لهم على حالهم من الضعف و الفرقة ،حفاظا على مصالحهم في المنطقة العربية.

والغريب في الأمر ان العرب كانوا يدركون هذه الحقائق ،ويعونها حق الوعي ،ويتحدثون اليوم ،عن روابط الدم و اللغة و القيم الأخلاقية التي كانت تجمع بينهم ،ولكنهم على مستوى الفعل تجدهم يتلاومون فيما بينهم ،ويحمل كل واحد منهم المسؤولية للآخر. الذي لم يفعل شيئا يحقق وحدة العرب ،ويدفع عنه هيمنة القوى الأجنبية .ويتجلى ذلك في العديد من المواقف في الرواية ،ويعبر عنه على ألسنة الكثير من أبطالها ،و من ذلك على سبيل المثال ،ما جاء على لسان المنذر الغساني في كلمة موجهة لقادة جيوشه الذين كانوا يستعدون للاشتباك في إحدى جولات حروبهم مع جيش أبي قابوس اللخمي ملك الحيرة .وذللك سنة 562م حيث يقول : « لقد أردنا الخلاص من الروم فما وفقنا ،ولا يزال قيصر يأبي علينا تللك الحرية التي اردنا لبلادنا .... فرأيتني مسوقا إلى مصانعة قيصر بعد ذلك الجفاء ،ولكن أحببت أن أحس على قومي فلا تراق دماؤهم ،فدعوت النعمان على وضع السلاح ،ورجوته أن تكون بيننا موادعة طويلة نستريح إليها ،و لكن النعمان تمادى في استهتاره وعبثه بكرامتنا ،فراح يحشد الجيوش على أطراف بلادنا ،بالعار ... فإذا أريق دم بريء في هذه الصحراء ،فإن إثم ذللك يقع على من في العراق من أبناء عمنا الذين جعلوا أنفسهم خولا للفرس وعبدانا لرؤسائهم».14

وواضح من هذا الخطاب المؤثر ان المؤلف يسقط الماضي على الحاضر ، حيث يُشيِّد هذا البناء من مجموعة من الأحداث غاية في الرقة ، والترتيب والنسق والحركة والتغير ، وهي من أهم عناصره ، فهي التي توقظ التأثر والانفعال لدي القارئ والمشاهد والسامع .15

كأنه يقول لقارئه :ما أشبه اليوم بالبارحة ،بالأمس كان الفرس و الروم ،واليوم أصبح المستعمر البريطاني و الفرنسي .وهو بهذا يدعو ضمنيا العرب غلى استخلاص العبرة من التاريخ ،وإلى نبذ خلافاتهم ،و توحيد كلمتهم ،وعدم الاطمئنان إلى القوى الاجنبية.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير أن رواية سيد قريش قد كتبت و صدرت في أعقاب الثورة العربية ضد الاتراك التي انطلقت من مكة سنة 1916 بقيادة الشريف حسين وشملت كل الرقعة العربية الممتدة من الحجاز إلى العراق و سوريا و لبنان مرورا بالأردن و فلسطين، وقد شارك فيها كل العرب .16

وواضح أيضا ، أن الرسالة التي أراد الكاتب أن يبلغها للمجتمع العربي و قرائه بصفة خاصة ذات نزعة قومية ،وتعني أن وحدة العرب لم تتم في القديم ،ونهضتهم لم تقم إلا من خلال الإسلام كطاقة محركة ،و كركيزة أساسية تقوم عليها نهضتهم و تلاحمهم.

ونستطيع أن نتبين بسهولة أي نوع من القومية كان يؤمن بها - معروف الأرناؤوط – و هو الرجل الألباني – إنها ليست قومية عرقية،كتلك التي تجسدت بشكل خاص في النازية و الفاشية بالأمس ،ولائكية تستبعد الدين عن شؤون الدنيا. ولكنها قومية عربية اللسان ،إسلامية العقيدة ،بحيث تشمل كل من تكلم العربية ،وتتسع لكل مسلمين ،و إلى جانب هذا

،هي قومية متفتحة على العصر ،مسايرة للحضارة الحديثة، إنها باختصار ،تلك القومية التي نادى بها ،وعبر عنها بكل روعة عبد الرحمن الكواكبي ،وساطع الحصري ،وغيرها من القوميين المتنورين.17

وإذا كان كاتبنا قد اختار أن يقدم للقارئ الاحداث التاريخية في طابع روائي ،فإذا هذا الشكل يفرض على صاحبه أن يعنى بقالب التعبير باللغة، ويلتمس التأثير في قرائّه بفنية الكلمة وسحرها، كون الرواية ليست تعبيراً عن الحياة، وتصويراً لها بلغة الحياة فحسب وإّنما هي نص أدبي يجب أن تتوافر له عناصر الفن في الشكل والمضمون18.

فالرواية، إذا، عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب متداخل الأصول ، إنها شكل أدبي جميل) اللغة هي مادته الأولى ، والخيال هو الماء الكريم الذي يسقي هذه اللغة فتنمو وتربو وتمرع وتخصب ، والتقنيات لا تعدو كونها أدوات لعجن هذه اللغة المشبعة بالخيال ثم تشكيلها على نحو معين . إضافة إلى عنصر السرد).بأشكاله ، والحوار ، والحبكة ، والأحداث ، والحيز المكاني والزماني.19

و الواقع ن أن بعض ما جاء في الرواية من هذا القبيل ،كان موفقا إلى حد كبير ـــويعبر عن جوانب إنسانية لا يستطيع التاريخ عادة أن يعبر عنها ،بحكم الموضوعية المفترضة التي يتعامل بها التاريخ مع الأحداث ،بحيث تضيع في طي الموضوعية كثير من المشاعر، و كثير من الآمال و الآلام، و أبرز مثال على ذلك مأساة الشاعر امرئ القيس .الذي انتقل إلى القسطنطينية طالبا نجدة إمبراطور الروم.

لكن بعض الوقائع الأخرى في الرواية جاءت مفتعلة وغير محتملة الوقوع إلا في حدود ضيقة نومنها على سبيل المثال تلك الصحبة التي جمعت بين أبي سفيان بن حرب ، وحسان بن ثابت و أمية بن أبي صلت ،إذ كيف يجتمع هؤلاء في صحبة طويلة رغم اختلافهم في الاهتمامات و المقاصد ،فالأول كان تاجرا و الثاني شاعرا اما الثالث مترهبا. ولو اقتصر الأمر على لقاء عابر بينهم لعد من الاحداث العارضة الممكنة الحدوث مهما اختلفت طبائع الشخصيات.

ويضعف النسيج الروائي في سيد قريش أحيانا ليتحول إلى مجرد أخبار ينقلها المؤلف بحذافيرها عن أمهات الكتب في التاريخ و الأدب و السيرة ،ككتاب الأغاني للأصفهاني، و تاريخ الطبري و سيرة ابن هشام مثل حديثه عن سوق عكاظ وشعرائه. ومثل تطرقه أيضا لما كان يروى عن النعمان بن المنذر ،الذي اتخذ له يومين في العام يسميهما يوم النحس و يوم السعد ،يقتل فيه كل من يصادفه في اليوم الأول ،وينعم فيه على كل من يلقاه في اليوم الثاني. وهنا الكاتب نلاحظه حريص في هذا الشأن على ذكر المصادر و المراجع المستعملة في إنجاز الرواية، لذلك يذيل كل فصل منها بقائمة من تلك الكتب. ولا يكفي بهذا وحده ،بل يضيف في نهاية كل جزء ملخصا تاريخيا يوجز فيه تاريخ الملوك والأمراء والمماليك الذين أدخلهم في ثنايا الرواية. 20

وهو في حرصه هذا على التدقيق في الجانب التاريخي يلتقي في ذلك مع جرجي زيدان في رواياته، ويسير على نفس النهج حتى و إن تجاوزه في محاولة إعطاء تفسير معين للتاريخ ،وإسقاط وقائع الماضي على الحاضر ،لكن زيدان من جهته يتجاوز الأرناؤوط في مقدرته على الإمساك بزمام الفن الروائي ،وببراعته في خلق عنصر التشويق الذي يجعل القارئ يتمتع ويستمتع في آن واحد إذ بلغت أرقى صورها في العمل الابداعي.

الخاتمة

خير ما نختم به في رأينا أن الرواية التاريخية حققت نجاحا كبيرا ، وقطعت أشواطا أطول في مدة قياسية ، كونها اختارت الاهتمام بالمضمون واستقاءه من عمق المجتمع العربي ، واشتغلت في الكتابة بلغة المجتمع البسيط بإدماج عناصر التراث بروافده المختلفة الديني ،والتاريخي ، إذ يشع بتدفق الزخم

ومن هذا المنطلق فقد جعل" معروف أرناؤوط " من المجتمع والتراث أداة طبيعة تساعده على إبداع عمل روائي ويعبر أيضا من خلاله عن أمته ،ذلك لأن عناصر المجتمع وجزئيات التراث الشعبي لا تزال محافظة عن رونق جمالها وقوة مضمونها الإنساني رغم تعاقب الأجيال ومرور الأحقاب. وربما كان هذا ما أعطاه ذلك الرواج الكبير في حينه ويومنا هذا.

وقد ترسمت أمامنا مجموعة من الملامح العامة لكيفيات التوظيف والتعامل التي استخدمها المبدع " معروف أرناؤوط " في روايته بالأشكال الآتية:

- حرصه على إبراز الخلفية القومية والاجتماعية للرواية التّاريخية العربية المعاصرة، مثلما لجأ القصاصون الشعبيون على حفز الهمم ودفع النّاس للجهاد والدفاع عن حياض الوطن المهدد.
- بدا كاتباً ملتزماً يسخر لرواياته التّاريخية أبلغ الأثر في اليقظة العربية المعاصرة، في محاولة منه لمزج عاطفة الحب الإنساني بحب الوطن والاعتزاز بالانتماء إلى الإسلام والعروبة.
- كان هدف معروف من وراء تلك الروايات بعث الماضي المجيد، وإزكاء روح اليقظة في نفوس الأجيال، وقد أبدع بقلمه الرفيع أدباً راقياً ممتازاً، قوي الأسلوب، فهو رائد من رواد النهضة العربية الإسلامية وداعية من دعاتها .

هوامش البحث:

1 - عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد - عالم المعرفة،الكويت،عدد 240،سنة1998 ، ص11 .

2 - حميد الحميداني ،الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي الشركة الجديدة، دار الثقافة ، سنة1985 ص37 .

3 - أرناؤوط، عبد اللطيف، معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام1892 - 1948، دار عكرمة، دمشق ، سنة2001 ، ص5 .

4- تعريف بالكاتب :معروف الاناؤوط ، ولد سنة 1892ببيروت ،وهو من أصل ألباني ،هاجر والده إلى لبنان أيام أن كان هذا البلد واقعا تحت الحكم العثماني .درس في كلية العثمانية الإسلامية ،و أتقن فيها عدة لغات منها التركية و الفرنسية ،إلى جانب اللغة العربية .اشتغل في أول حياته المهنية بالترجمة و قام بتعريب عدة روايات بوليسية من اللغة الفرنسية ،ويقال إنه تأثر بها في وضع بناء رواياته التاريخية التي كتبها لاحقا، وتتمثل في أربع رويات ،استقى موضوعاتها كلها من التاريخ العربي الإسلامي و تحمل العناوين التالية :"سيد قريش " في ثلاثة أجزاء وهي الرواية التي نحن بصدد الحديث عنها ،وصدرت سنة 1929،رواية "عمر بن الخطاب " في جزئيين سنة 1936، رواية " طارق ين زياد "سنة 1941،ورواية " فاطمة البتول " سنة 1942.

5- أرناؤوط، عبد اللطيف، معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام1892 - 1948، ص8 .

6 - مجدي علي المختار، الرواية التاريخية –النشأة والتطور- دار الرحمة للنشر و التوزيع- الجزائر ، سنة2013،ص 48.

7 - المرجع نفسه، ص56.

8- المنجد في اللغة و العلوم.

9- فائق محمد ، دراسات في الرواية العربية ، دار الشبيبة للنشر والتوزيع ، سنة 1978، ص92 .

10- مجدي علي المختار، الرواية التاريخية –النشأة والتطور ، ص23.

11- ابراهيم خليل- قراءة الرواية وأسطورة المعنى، عمان ،العدد 157، تموز، سنة2007.

12 - سلسلة أنيس ، رواية سيد قريش ،م.و.ف.م للنشر ،الجزائر، سنة 1993،ص55.

13 - محمد الخطيب ، الرواية والواقع ، دار الحداثة ، بيروت، سنة1981، ط1 ، ص107 .

14- سلسلة أنيس ، رواية سيد قريش ،ص 210.
15 - عبد الرحمن ياغي، في الجهود الروائية من سليم البستاني إلى نجيب محفوظ، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط01 سنة 1999،بدون صفحة.
16- مجدي علي المختار، الرواية التاريخية –النشأة والتطور،ص112.
17- المرجع نفسه، ص143.
18 - أرناؤوط، عبد اللطيف، معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام1892 - 1948، ص22
19 - عبد المالك مرتاض ، في نظرية الأدب،ص27.
20- أرناؤوط، عبد اللطيف، معروف الأرناؤوط رائد الرواية التاريخية في بلاد الشام1892 -1948، ص30-31.